المشرق
كانون الاول ١٩٣١

عيد التذكار المئوي

لتجديد رسالة الآباء اليسوعيين في لبنان وسورية

١٨٣١-١٩٣١

خطاب حضرة الاب ده بونفيل، رئيس اقليم ليون

نهار الاحد الواقع في الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩٣١، ظهرت كلية القديس يوسف بثوب قشيب من الزينة ابتهاجاً بعيد التذكار المئوي لتجديد الرسالة اليسوعية في لبنان وسورية.

وكانت حفلات العيد قد تتابعت منذ اشهر، فكانت اولاها في بيروت حيث احتفلت الكلية بتكريم اربعة عشر من الآباء والاخوة الطاعنين في السنّ خدموا الله والشعب في الرسالة مدة خمسين سنة او اكثر. وكانت الثانية في دمشق (١٨ و١٩ نيسان) اذ احتُفل بتدشين كنيسة القديس يوحنا الدمشقي التي شيّدها الآباء اليسوعيون بالمكان الذي كان فيه منزل القديس، وشاؤوا ان تكون اثراً تذكارياً لهذا العام اليوبيلي. وكانت الثالثة في باريس (١١ تشرين الاول) في بناية الرسالات الكاثوليكية من المعرض الباريسي العظيم، حيث اقام حضرة الأب ده بونفيل،

رئيس اقليم ليون المرتبطة به رسالة لبنان وسورية ، قداساً حافلاً ترأسه اسقف باريس المساعد ، وحضره جم غفير من كبار الساسة الفرنسيين واركان الجيش البرّي والبحري ، وبينهم السيّد بونسو المفوّض السامي في بلادنا ، وعدد من رجالات الاكليروس الشرقي والجالية اللبنانية والسورية

اما الحفلة الكبرى فكان ميدانها ، في بيروت ، الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩٣١ – وقد وصل اول اليسوعيين الى بيروت في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣١ – فتوافد المدعوون الى الكلية منذ الصباح . وعند الساعة العاشرة ، موعد القداس الكبير الذي افتُتحت به حفلات العيد ، دخلوا الكنيسة فضاقت بجم على رحبها . وقد تقدَّمهم من جهة اليمين ممثّل المفوضية العليا ، السيد هلّاو مندوب المفوض السامي ، واوغست اديب باشا ، رئيس وزراء لبنان ، ممثلاً رئيس الجمهورية ، والسيد لافون ، قنصل فرنسة ، وموسى بك نمور ، وزير الداخلية ، ثم المستشارون ورؤساء المصالح والدوائر في المفوضية العليا والحكومة الوطنية . وكان من جهة الشمال قائد الجيش العام ، الجنرال دي بينو ده غرانزو ، والاميرال دڤيل ، قائد الاسطول ، وكبراء الضباط في جيشي البر والبحر ، وقد جلس وراءهم اساتذة المعاهد العليا في كليتنا بزّاتهم الرسمية ، وبينهم اللجنة الفاحصة لمعهد الحقوق ، فممثلو جمعية متخرجي الكلية ، فاماثل القوم من السادة والسيدات ، فطلبة العلوم العليا .

اما في الخورس فقد جلس الى يمين المذبح ، فوق العرش ، صاحب النيافة السيد القاصد الرسولي في سورية ولبنان مترئساً ، وازاءه من الجهة الاخرى صاحب الغبطة السيد اغناطيوس جبرائيل تبوني ، بطريرك الطائفة السريانية ، والسيد افيديس اربياريان ، بطريرك الطائفة الارمنية ، واصحاب السيادة المطران عبدالله خوري ممثلاً صاحب الغبطة بطريرك الطائفة المارونية ، والمطران نيقولاوس القاضي ممثلاً صاحب الغبطة بطريرك طائفة الروم الكاثوليك ، والمطارنة اغناطيوس مبارك ، وباسيليوس قطان ، واغناطيوس نوري ، ويوحنا نازليان ، وديونيسيوس كفوري ، ويوسف جرجي ، ولويس بونديني . ومن بعدهم رؤساء وممثلو الرهبانيات الشرقية والغربية ، ورؤساء المعاهد العلمية ، وراءهم عدد غفير من الرهبان ورجال الاكليروس .

واحتفل بالذبيحة الالهية الاب الجليل رئيس الآباء الكبوشيين في بيروت ، تخدمه جوقة المرتلين من تلاميذ الكلية التي انشدت الصلوات الطقسية موقّعة توقيعاً دقيقاً جيلاً .

وبعد الانجيل ارتقى الاب ده بونفيل ، رئيس الكلية السابق ، والرئيس الاقليمي اليوم ، منبر الكنيسة فتلا رقيماً موجّهاً من وزير الكرسي الرسولي الكردينال پاشلي باسم الحبر الاعظم الى رئيس رسالتنا بمناسبة العيد المئوي ، ثم القى الخطاب التالي تعريبه :

يا اصحاب النبطة والسيادة

ايها السادة

ايها الاخوة

في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٣١ ، نزل في ثغر بيروت ثلاثة يسوعيون ، اتوا الشرق ، بعد ست وخمسين سنة ، ليستعيدوا العمل المنقطع ببراءة البابا اكليمنضوس الرابع عشر التي حلّت الرهبانية اليسوعية. وصل الرجال الثلاثة يدفعهم العزم الثابت ويهيب بهم الريب والتردّد . فانهم لم يكونوا ليعرفوا حق المعرفة مقدّرات البلاد ولا عقباتها . حتى انهم كانوا يترددون ، بعد خمسة وثلاثين يوماً قضوها على سطح البحار ، في اختيار النقطة التي ينزلون فيها الى البرّ . وكانت تبلغ مسامعهم اخبار الحرب واخبار الهواء الاصفر الى ان قيّض لهم الاتفاق ، بل دفعهم دافع مفاجئ الى اختيار ثغر بيروت فنزلوا فيه.

كانوا ثلاثة يتطلّبون مدخلاً ويفتّشون عن طريق . اما اليوم فان رسالة الآباء اليسوعيين تعدّ مائة وخمسين عاملاً . وهي تبسط ، من مراكزها المهمة ، في بيروت ودمشق وحلب وقرق خان ، في حمص وطرطوس ، في بكفيا وغزير وزحلة وتعنايل وكاره ، نفوذها المباشر على كثير من القرى المنتشرة فيها مدارس الصبيان والبنات التي يزورها المرسَلون بطريقة منظّمة.

لا يجمل بي ، ايها السادة ، ان اقوم بتقريظ هذا العمل ولا بالمدافعة عنه. ولكن يمكنني ان اجتهد في ذكر ما اتصف به من الميزات ، اذا ما تتبعت مراحل اتساعه مدة الاعوام الخمسة عشر الاولى . فنرى مرسومة فيه اولاً فكرة ليست من افكار البشر ، ونرى مظاهرَ التقدم مقبولةً بخضوع وتسليم تحت تأثير حوادث ليس فيها من نصيب كبير للمشيئة البشرية ، اكثر منها مطلوبةً بسعي سابق مقرَّر ومتفق عليه . واذا فيمكننا الاعتقاد ان العمل الذي يظهر امامنا اليوم ثابتاً قوياً هو ، في تركيب اجزائه ورسمه ، ما شاء الله ان يكون.

***

دعا اليسوعيين سنة ١٨٣١ ، السيد مظلوم ، الاسقف الرومي الكاثوليكي ، ليديروا المدرسة الاكليريكية في عين تراز . ولكن لم يكن النجاح مكتوباً

لذلك العمل . وهو حادث عادي ان يحبط مسعى الانسان اولاً كي يعود اليه من جديد. على ان الفكرة الاولى كانت مصيبةً كما سيدلّ المستقبل على ذلك.

ولما لم يشأ الآباء الانتظار دون عمل ، اخذوا يجوبون البلاد مفتّشين عن النفوس ، باحثين عن فكرة عامة تدير اعمالهم . فكانوا يتأثرون بمظاهر الجهل وحالة الاهمال التي كثيراً ما كانوا يصادفون فيها سكان القرى المسيحية. وكان لهم مع المتاولة والدروز ملامسات كانت تدفعهم الى التأمل العميق.

ثم زاروا بلاد حوران . وقد يكونون خلطوا ، في الملامسة الاولى ، بين عناصر جنسية مختلفة ، فخيل لهم انهم يسمعون نداء البدو . وعلى كل فقد بدأوا يشعرون بجاذبية الصحراء . وكيف لا يكون ذلك ؟ والمرسَل لا يمكنه الامتناع عن سماع النداء الغامض الذي يتصاعد من نفوس لم يطلع فيها بعد نور يسوع المسيح .

ستقفل عين تراز . ولكن سيُعاد العمل في المشروع على طريقة لم يفكر فيها سابقاً . وكان من ذلك المدرسة الاكليريكية التي أُنشئت في غزير سنة ١٨٤٣ لا لطائفة واحدة بل لجميع الطوائف الشرقية. فضمنت الحياة للمشروع على هذه الطريقة . ثم ان تلك المدرسة الاكليريكية نُقلت الى بيروت سنة ١٨٧٥، فاصبحت سنة ١٨٨١ كلية بابوية بمعهديها العاليين في الفلسفة واللاهوت.

وهذا ما رسم الميزة الاولى الفارقة للرسالة اليسوعية الجديدة في الشرق . لقد اتى الآباء ليقوموا بخدمة رؤساء الطوائف الشرقية المختلفة، وخصوصاً ليعاونوهم في تهذيب اكليروسهم بواسطة تربية روحية عميقة وثقافة عقلية عالية.

***

اما الميزة الثانية التي خصّتها العناية الالهية برسالة سورية فكانت المعاونة الفرنسوية . وقد كان البشر ، على ما يظهر ، قد فكروا بغير هذا . فان من اليسوعيين الثلاثة الذين نزلوا في بيروت سنة ١٨٣١ ، كان الاول ، الاب ريكادونا ، ايطالياً ؛ والثاني ، الاب بلانشه ، فرنسوياً من مقاطعة غاب ؛ والثالث ، الاخ هنزي ، من هانوفر . وكانت الرسالة نفسها رومانية تتعلق رأساً بالرئيس العام . ثم اتى افرنسي آخر هو الاب استاف الذي وصل سنة

١٨٣٣ ، وتبعه سنة ١٨٣٦ الاب ريلو البولوني . ويحسن بنا ان نشير هنا الى ان هؤلاء الرجال كانوا كلهم شباناً لم يبلغ احد منهم الخامسة والثلاثين . ولعل هذا شرط جوهري للخلق والانشاء .

فيظهر ان الرسالة الجديدة لم تكن فرنسوية خلافاً للرسالة القديمة التي عُهد بها منذ تأسيسها الى اقليم ليون . وكان من جرّاء هذا بعض مصاعب شعر بها الآباء حالاً ، ولكن انتظروا ساعة الرب . وفي سنة ١٨٣٤ ذكر الاب ريكادونا ، ذكره نعمة خاصة من قلب يسوع ، ان قنصل فرنسة سمح للآباء ان يرفعوا فوق اديرتهم الراية الفرنسوية . ولم يمضِ زمن قليل حتى اخذ القنصل والآباء يعملون معاً على حسم خلاف شجر بين بعض الكاثوليك فأدّى بهم الى مخاصمات دموية . وفي سنة ١٨٤٣ ارجع الرئيس العام رسالة هذه البلاد الى مقاطعة ليون التي كانت اجود من غيرها في تقديم الرجال ، والتي كانت تشعر اذ ذاك بقوة محيية تسري في عروقها . وهكذا التحمت حلقات التقليد القديم ، وقد عملت في سبيلها حركة النفوس ذاتها ، كما عملت شريعة التاريخ الخفية في فرض القرارات والاحكام . ومن ذاك الحين اصبحت اللغة الفرنسوية ، الى جنب اللغة العربية ، اللغة الرسمية في الرسالة وفي المدارس .

ثم جاءت سنة ١٨٦٠ بصروفها الهائلة فختمت هذا الاتحاد بالدم المهراق ، وبالنفوس المضحّى بها في سبيل المحبة .

***

بدأت الرسالة بخدمة الكنائس الشرقية ، وبمعاونة دولة فرنسة . على انها لم تشعر بكيانها الشعور التام الا بمؤسساتها في بيروت . لم يقم الآباء اولاً في هذه المدينة ، وقد قلت انهم باشروا تجربتهم الاولى في عين تراز ، ومن هناك تفرّقوا في نواحٍ مختلفة ، مفتشين عن الطريق مترددين في النظر الى المستقبل . حتى اتى الاب ريلو ، وكان رجلاً جريئاً من ارباب المآتي العظيمة ، فميّز مركز بيروت وادرك ما سيختصها به المستقبل . على انه عندما استوقفت هذه النقطة من الشاطئ نظر ذاك النسر ، لم تكن الجغرافية وحدها التي هدته الى ذلك . بل كان هناك امر آخر اثر فيه ، وفي الآباء معه ، وفي رؤساء الرهبنة ، وهو

حدث ديني ذو شأن . فان بيروت كانت قد اصبحت المركز المهم للعمل البروتستاني . ويجب علينا ، ايها السادة ، ان نتكلم عن هذه الشؤون بكامل الحرية والصراحة والبساطة . فان منشآتنا التعليمية من ابتدائية وثنوية وعالية أسست في بيروت بعد المنشآت البروتستانتية ، وبسبب وجود هذه فيها . وليس في هذه المزاحمة ، بل في هذه المنافسة على الاصح ، ما ينفي اللطف والتأدب ولا ما يوجب الغيظ والكره . وان صلاتي الشخصية برؤساء الارساليات البروتستانتية لا تجيز لي الشكّ في نبل اخلاقهم ، وسموّ انظارهم ، وخلوص نياتهم . وهل يتمكن المرسل ، دون ان يخون قلبه ، ان ينظر بغير عطف الى رجال ابتعدوا عن بلادهم في سبيل فتح روحي معتقدين انهم يتبعون نصيحة السيد المسيح القائل : « بشروا بالانجيل جميع الخلائق » . بيد ان البروتستانتية — مهما كانت النيّات — تقدّم انجيلًا ناقصاً محروماً من مزيته العقائدية ومما يفرضه من تدرّج المراقب ، تقدّم انجيلًا دون عقيدة ولا كنيسة . وهو امر يمثل للكاثوليك خطرًا مميتاً . لان حياتنا الدينية الكاثوليكية مؤسسة على صحة الايمان بكليته الذي تحدده سلطة الكنيسة فاذا هدمتم هذا ، فاننا نؤكد انكم ، مهما كان من سموّ غايتكم ومهما كان من روحية الدافع لتبشيركم ، تخنقون ، في النفوس الكاثوليكية التي تتبعكم ، الحياة الدينية واهم ما في الحياة الادبية فيكون واجبنا الاضطراري ، والحالة هذه ، ان ننشئ تعليماً كاثوليكيا متدرّجاً يؤيد في ابسط النفوس متانة العقيدة ، ويمكّن في العلوم العالية سلطة الكنيسة العقلية .

اما هل نجحنا في هذا العمل الذي اخذنا على انفسنا القيام به ، فيكفي لنتأكد ذلك ، ان ننظر الى هذا الحفل ، يكفي ان نتأمل جدران هذه الكلية ، ان نجوب مختبراتها ، ثم يمكننا ان نستعيد كلام نيافة الكردينال ، امين السرّ ، في الكتاب الذي قرأته قبيل هذا الكلام اذ يقول : « ان الاب الاقدس لا ينسى ايضاً ذاك العمل العظيم بين سائر الاعمال الذي كان وسيظلّ مجد الرسالة الخالد ، الا وهو انشاء كلية القديس يوسف . فانها لا تهتمّ بالعلوم الدينية فحسب ، بل بسائر العلوم ايضاً . وما هو اعظم من هذا ان الشبيبة ، التي تختلف الى مصدر الدروس ذاك ، مطمئنة الى انها تجد في الدروس

ذاتها لا اعداء ومقاومين بل معاونين ومساعدين للايمان والاخلاق الصالحة.»

* * *

بهذه الميزات الثلاث الشاملة : خدمة الطوائف الشرقية ولاسيما اكليروسها، والمعاونة الفرنسوية ، والدفاع عن الايمان ، تبرز المهمة الشخصية لرسالة الآباء اليسوعيين في الشرق.

وان جمعية يسوع ، من قبل تأسيسها ذاته ، قائمة في طليعة المدافعين عن الايمان . وقد اتت هذه البلاد في سبيل ارسالية جديدة ، مدفوعةً بغايتها الاولى التي رسمتها العناية في جوهرها ذاته . وهذا ما يُنتظر منها في المستقبل ايضاً الا وهو اخلاص للايمان لا يتراخى ولا يكلّ ، وسواء عليها أوَجب المساعدة في تثقيف الاكليروس وتوسيع معارفه ، او تعليم سكّان القرى والارياف البسطاء ، او نقل من لا يزالون في ظلال الموت الى نور الحقيقة الساطع ؛ او حماية كمال العقيدة من مساوئ النقد الملاشي الفاسد او من مخاطر نوع من الدين مضطرب التعاليم ؛ او تثبيت حيوية الكنيسة العقلية فتأييد سبقها وامتيازها في العلوم العالية ، في التاريخ ، في الاثريات ، في الآداب واللغات الشرقية ؛ فان جمعية يسوع تسير في كل هذا منقادةً بالروح العبقريّة التي انشأتها. وليس عليها الا ان تظلّ امينة لفكرة مؤسسها ، ولسلسلة تقاليدها. وهي ، في خلال كل ما تقدّم ، تطيبكم قلبها. وليؤذن لي هنا ان أضيف نبرة شخصية فاقول انكم تكافئونها على ذلك بادلّة وداد غاية في اللطف والصدق والامانة .

ثم شاء الله فصادفت جمعية يسوع الى جنبها ، في عملها هذا ، دولة فرنسة . واننا لسعداء بذلك ، واننا لفخورون ، واننا لعارفو الجميل . واننا نرى في الامر وعداً للمستقبل ، على كونه لم يكن نتيجة مشروع متفق عليه سابقاً . ولكن بما ان ملاءمات نفسية وتاريخية حميمة خالصة كانت تجمع بين روح الامة الفرنسوية وروح الامة اللبنانية ، وبما ان دافقاً روحياً عميقاً كان يحمل نفس الشعب الفرنسوي ، على رغم بعض الظواهر المعاكسة احياناً ، على الاخلاص للايمان الروماني اخلاصاً صريحاً كريماً ، فلنشكر الله جميعاً ، ولنطلب منه ان يبارك معاً فرنسة ولبنان في امانتهما المشتركة للكنيسة.